عاصفة القـــدر

للمرحوم مصطفى صادق الرافعي

[عثر في أوراق المرحوم الرافعي على أقصوصة نحسبها لم تنشر، فوجدنا من حسن المناسبة أن ننشرها في يوم ذكراه]

على شاطئ النيل في إقليم « الغربية » من هذا البر قرية ليس فيها من جبل ولكن روح الجبل في رجل من أهلها ، فإذا أنت اعتبرته بالرجال قوة وضعفاً رأيته ينهض فيهم بمنكبيه نهضة الجبل فيما حوله، وهو بطل القرية ولواء كل معركة تنشب فيها بين فتيانها وبين فتيان القرى المتناثرة حولها ، ولا تزال هـذه المعارك بين شبان القرى كأنها من حركة الدم الحر الفائح المتوارث فيهم من أجيال بعيدة ينحدر من جيل إلى جيل وفيه تلك الفطرات الثائرة التي كانت تغلي وتفور، وهي كمهدها لا تزال تفور وتغلي، ويلقبون هذا الرجل الشديد (بالجمل) لما يعرفونه من جسامة خلقه وصبره على الشدائد واحتماله فيها وكونه مع ذلك سلس القياد سليم الفطرة رقيق الطبع ، على أنه أبطش ذي يدين إن ثار ثائره ، وله إيمان قوي يستمسك به كما يتماسك الجبل بعنصره الصخري ، إلا أنه يخلطه ببعض الخرافات ؛ إذ لا بد له من بعض الجرائم الشريفة التي يحمل عليها فرط القوة والمروءة في مثله مع مثله . وليس في تلك القرية من بحر غير أن فيها شاباً أعنف طيشاً وعتواً من الموجة على بحرها في يوم ريح عاتية ، حلو المنظر لكنه مر الطعم ، ساقي الوجه لكن له غوراً بعيداً من الدهاء والخبث ، وهو ابن عمدة البلدة وواحد أبويه والوارث من دنياهما العريضة ببسط يديه على خمسائة فدان ، وقد أفسدته النعمة ، وأهانته عزته على أهله ، ولو اجتمعت حسنتان لتخرج منهما سيئة من السيئات بأسلوب من الأساليب لما وسمها إلا أسلوب نشأته من أبويه الطيبين ، تعلم وهو يعرف أنه لا حاجة به إلى العلم ، فجعلت تلفظه المدارس واحدة بعد واحدة كأنه نواة ثمرة إنسانية، فإذا قيل له في ذلك قال إن خمسمائة فدان لا تسمها مدرسة ... وذهب إلى فرنسا يطلب العلم الذي استعصى عليه في مصر، فأرهف ذلك العلم ... خياله وصقل حسه، ورجع من باريس رقيق الحاشية خنثاً متظرفاً لا يصلح شرقياً ولا غربياً

... وليس في تلك القرية غابة لكن فيها عذراء تلتف من جسمها في رداء الجمال الطبيعي الرائع ، ولها نفس أشد وعورة مما تنطوي الغابة عليه ، ففي ظاهرها الرونق الذي يفتن فيجذب إليها ، وفي باطنها القوة التي تلتوي فتدفع عنها ؛ وهي ابنة عم (الجمل) واسمها (خضراء) ؛ وكأن فيها زهو خضرة الربيع ، ولم تكن تعشق إلا القوة ، فما يزين لها من الرجال إلا ابن عمها ، وهي شديدة الإعجاب به ، وإنما إعجاب المرأة برجل من الرجال مفتاح من مفاتيح قلبها

وكانت (خضراء) جاهلة كنساء القرى، بيد أنها تلميذة بارعة للطبيعة التي نشأت فيها وزاولت أعمالها ، فهي بذلك أقوى نفساً وأشد مراساً من الفتيات المتعلمات ؛ إذ اتخذت شكلا ثابتاً من أشكال الحياة ، والحياة هي صنعتها هذه الصنعة وأقامتها على هذه الهيئة ، على حين أن المتعلمات يمضين أيام النشأة وسن الغريزة في التلقي عن الألفاظ والكتب ، وفي توهم الصور المختلفة للاجتماع دون مباشرتها ، وفي توقي أعمال الحياة بدلاً من مخالطتها ، فيؤول ذلك منهن إلى قوة في التخيل قلما ترضى الحقيقة الإنسانية المؤلمة حين تصادمها يوماً ، وتلم الواحدة منهن ولكن باعتبار أنها تمت تلميذة للمدرسة ، لا امرأة للحياة بما فيها مما يعجب وما لا يعجب

وكانت خضراء أشبه بدودة النهار تفتح أجفانها على أشعة الفجر كل يوم ، ولا تزال نهارها في دأب وعمل ، فنفى ذلك عن أخلاقها ما يجلبه السكون من الخمول والميل إلى العبث والدعابة ، وحصلت لها من الحياة حقيقة عرفت منها أن المرأة عامل من من أكبر العوامل في النظام الإنساني عليه أن يصبر على الكد والتعب إذا أراد أن يظهر بطبيعته الحقيقية لا بطبيعته المزورة المصنوعة ؛ ورأت الرجل يستأثر بجلائل الأعمال ولا يترك للمرأة إلا كما يترك عقرب الساعات لعقرب الثواني في الرقعة التي تجمعهما ، فهذا الصغير لا يبرح يضطرب في « دائرته الضيقة » يهتز من جزء إلى جزء ، حتى إذا أتم الدقيقة في ستين هزة كاملة ذهب الأول بفضلها كلها وخطا بها خطوة واحدة . ثم يعود المستعف

المسكين إلى مثل عمله ، ولا يزال هذا دأبهما وإن أكثرهما عملاً وتعباً هو أقلهما قيمة وظهوراً . ولكن هذا الضعيف المغبون لم ينله ما ناله إلا من كونه هو وحده الذي بنى في هذا النظام على فضيلة الصبر والدقة ليكون أساساً للآخر . فعرفت (خضراء) كيف تقيد طبيعتها من تلقاء نفسها وتقرها على الصبر والرضا والسكون إلى حظها الطبيعي والاغتباط به ، إذ كان فضل الرجل على المرأة ليس في كونه أكثر منها فضلاً أو أسباب فضل ، بل في كونها هي أكثر منه حباً وتسامحاً وصبراً وإيثاراً ؛ ففضائلها الحقيقية هي التي جعلته الأفضل ، كما تجوع الأم لتطعم ابنها

* * *

ورآها ابن العمدة ، ولما تمض أيام على رجوعه من أوربا ، وقد لبث هناك بضع سنين ، وكان عهده بالفتاة صغيرة ، فوثبت إلى نفسه في وثبة واحدة ، ورأى شباباً وجمالاً وروعة زينتها في قلبه وسولت له مطمعاً من المطامع وجعلته يرى ما يرى بمعنى ويفهم منه ما يفهم بمعنى غيره

وكانت حين رآها واقفة على النيل تملأ جرتها مع نساء من قومها وهن يتعابثن ويتضاحكن ، كأن لخصب الأرض في أرواحهن أثراً بادياً ، فإذا ما أقبلن على النهر لشأن من شؤونهن تندت روح الماء على ذلك الأثر فاهتز واهتزت المرأة به ؛ فإن كانت ذات مسحة من جمال رأيت لها رفيفاً كرفيف الزهرة حين يمسحها الندى ، وذهبت لتموج في جسمها ، وقد حسرت عن ذراعيها ، ولمس الماء دمها الجذاب ، فأرسل فيه تياراً من العافية والنشاط يتصل منها بقلب من يراها إن هو كان شاعراً يحس ؛ فإن كانت روح الرجل ظمأى ورأى المرأة على هذه الهيئة ، فما أحبه أن يشرب منها بعينيه شراباً يجد له في قلبه نشوة كنشوة الخمر ... وكذلك وقعت الفتاة من نفس هذا الفتى ، فزينها له الخبث الذي فيه أضعاف ما زينها له الجمال الذي فيها ، وقذفها القدر إلى قلبه ليخرج من هذا القلب تاريخ جريمة ، فوقف يتأملها بعين أحدّ من آلة التصوير لا تفوتها حركة ، وسلط عليها فكره وذوقه ، وأيقظ لها في نفسه المعاني الراقدة ، فنصبت في قلبه عدة من تماثيل الجمال تجسّدت في كل واحد منها على شكل كأنما أفرغت فيه أفراغاً

وكانت نفس ابن العمدة من النفوس الخيالية المتوثبة ، إذ قامت من نشأتها على أن تطلب فتجاب ، وتأمر فتطاع ، وتشتهي فتجد ، وكأنه ما خلق إلا ليستعبد قلبي والديه ، وكانا ساذجين لا يعرفان من علم التربية إلا أن للحكومة مدارس للتربية ، وموسرين لا يفهمان من معنى الحاجة في هذه الدنيا إلا أنها الحاجة إلى المال ، ومنقطعين من النسل إلا منه ، فكأنه لم يولد لهما بل هما قد وُلدا له . . . فله الأمر عليهما من كونه لا أمر لهما عليه ، وبذلك أسرفا له من فضائل الرقة والحنان والإشفاق وما إليها ، وهي في نفسها فضائل ولكن متى أسرف بها الآباء على أولادهم لم تنشئ في أولادهم إلا ما يكون من أضدادها ، كالشجر يفرط عليه الري فلا يحدث فيه إلا اليبس والذوى ، وإنما أنت تسقيه الموت ما دمت تريه بمقدار من هواك لا بمقدار حاجته

ونشأ الفتى في أحوال اجتماعية مختلفة جعلت من أخص طباعه تمويه نفسه على الناس ، والتباهي بالغنى والتنبّل بالأصدقاء والحاشية من وزرائه وعماله ، والتهيؤ بالثياب والأزياء ، فانصرف باطنه إلى تجميل ظاهره ، وردّ ظاهره على باطنه بالشهوات والدنايا ، وأعانه على ذلك أنه جميل فاتن ، كأنما خلقت صورته « للصفحة الحساسة » من قلوب النساء . وذلك ملك عظيم لم يكن أبوه الرجل الطيب منه إلا كما يكون وزير مالية الدولة ... ... ولما أرسل إلى باريس وقع منها في بلد عجيب كأنه خيال متخيل ، لا يؤمه رجل في الدنيا من كامل أو ناقص ، وعالم أو جاهل ، وشريف أو ساقط ، إلا رأى فيه ما يملأ كل مداخل نفسه ومخارجها ؛ فلو قامت مدينة من أحلام النفوس الإنسانية في خيرها وشرها ، وطهرها وفجورها ، واختلالها ونظامها ، لكانت هي باريس . وانقطع الشاب هناك إلى نفسه وإلى صور نفسه من أصدقاء السوء ، فلا أهل يلزموه الفضيلة ولا إخوان يردوه إلى الرأي ، ولا خلق متين فيعتصم به ، ولا نفس مرة فيفيء إليها ولا فقر ... فيجد له حدوداً في الشهوات يقف عندها . وما هو إلا خيال متوقد ومزاج مشبوب وتربية مدللة وطبع جريء ومال يمر في إنفاقه ، ومن ورائه أب غني مخدوع كأنه في يد ابنه كرة الخيط : كلما جذب منها مدت له مدّاً ، ثم ما هنالك من فنون الجمال ومتع اللذات وأسباب اللهو مما يتناهى إليه فساد الفاسد وما هو في ذاته كأنه عقوبة مستأصلة للأخلاق الطبيعية فكان الشيطان الباريسي ... من هذا المسكين في سمعه وبصره ورجله ويده يوجهه حيث شاء . وبالجملة فقد ذهب ليدرس فدرس ما شاء ورجع أستاذاً في كل علوم النفس المختلة الطائشة وفنونها ، وأضاف إلى هذه وتلك كلمات يلوي بها لسانه من علوم وأقاويل ليس فيها إلا ما يدل الحاذق على أن هذا الشاب لم يفلح قط في مدرسة

فلما وقعت (خضراء) منه ذلك الموقع وأخذت مأخذها في نفسه، اعتدها نزوة من نزواته، فما بمثله أن يحب مثلها ولا هي كفايته في شيء، إلا أن تكون لهو ساعة من ساعاته، أو حادثة تجرى فيها حال من أحواله الغرامية . وحسبها امرأة ليس لقلبها أبواب تمتنع على مثله ، فقدر أن غناه وفقرها يفتلان باباً ، وعلمه وجهلها يحطمان باباً آخر ، وجماله وحده يضع ما بقى من الأقفال عما بقى من الأبواب ، وكان يحسب أن جمال المرأة من المرأة كالحلية من بائعها فكل من ملك ثمنها فليس بينه وبينها إلا هذا الثمن ؛ ولكن الأيام جعلت تأتى وتمر وهو لا يزيد على أن يعرض لها وهى ترميه من صدودها كل يوم بداعية من دواعى الهوى ، وكان لا يجد بنفسه قوة أن يزيدها على النظر شيئاً، وترك لوجهه وثيابه ونظراته وغناه أن تصل بين قلبه وقلبها بسبب، فلم يزل طائلاً وتمادى في حبه واستولت عليه فكرة غمرته بهذه المرأة ، أما هى فأشعرتها غريزتها بما في قلبه منها وكانت مسماة ، لابن عمها[1] ، فكانت تتحاشى هذا الشاب وتحذره حذراً شديداً، وتتوهم أن الناس يحصون عليها النظرة والالتفاتة ويحصون عليه من مثلهما ، ووقع في نفسها أن لهذا الرجل شأناً غير شأن الرجال الآخرين، فهم لا يستطيعون معها حيلة وهو يستطيعها بغناه ومنزلته

وكان للرجل خادم داهية قد تخرج في مجالس القضاء . . . من كثرة ما حكم عليه في تزوير واحتيال وغش وادعاء وإنكار ونحوها ، وقد استخلصه لنفسه واتخذه مؤانساً ورفيقاً وجعله دسيساً[2] إلى شهواته السافلة ، كان يسميه فيما بينهما (إبليس) فلما أراد أن يرميها به قال يا سيدى هذه قضية احتيال عليها ، فإذا دخل ابن عمها خصماً في الدعوى كانت قضية احتيال على عمرى أنا ! قال : ويحك أيها الأبله ! فأين دهاؤك ومكرك؟ وإنما أرسلك إلى امرأة فقيرة عيشها كفافها ، وأنت تمدها وتغنيها وتبذل عنى ما شئت ، ومتى أطمعتها في المال فإن هذا المال سيوجد ما لا يوجد في مكان فيشرى ما لا يشرى ويبيع ما لا يباع . قال (ابليس) : نعم يا سيدى وكذلك هو ، ولكن خوف العار يطرد حب المال . قال : فأنت إذن لا تقبل . قال : ولا أرفض ··· قال الشاب : قاتلك الله لقد فهمت سأشتريها منك بثمنين أحدهما لك والآخر لها، ولكن أخبرنى كيف تصنع معها ومن أين تبلغ إليها؟

قال (ابليس) : لما كنت في السجن عرفت لصاً فاتكاً أعيا قومه خبثاً وشراً، وهذا السجن يحسبه الناس عقاباً وردعاً ومنهاة عن الإثم على أنه المدرسة التي تنشئها الحكومة بنفسها لتلقى علوم الجريمة عن كبار أساتذتها، إذ لا يمكن أن يجتمع كبارهم في مكان من الأرض إلا فيه . فالسجن طريقة من طرق حل المشكلة الإنسانية ولكنه هو نفسه يحدث للانسانية مشكلة لا تحل . قال الفتى : ويحك ! أين يذهب بك ؟ إنما أرسلك إلى المرأة لا إلى السجن. قال: نعم ترسلني أنت إليها ولكن لا يعلم إلا الله أين يرسلنى ابن عمها، إلى السجن أم إلى المستشفى ··· فاسمع ياسيدى، كان من نصائح أستاذى في ذلك السجن أن الحيلة على رجل ينبغى لإحكامها أن يكون في بعض أسبابها امرأة ، والكيد لامرأة يجب أن يكون في بعض وسائله رجل ... صه . انظر ! انظر ! فالتفت الشاب فإذا (الجمل) مقبل يتكفأ في مشيته ، وكان غليظاً ، فإذا خطا شد على الأرض بقدميه ، وتكدس بعضه في بعض ، وكان منطلقاً وقتئذ إلى بعض مذاهبه ، فلما حاذاهما قال : السلام عليكم . فردا جميعاً ؛ ورمى ابن العمدة بنظرة ثم مضى لوجهه . فلم يجاوز غير بعيد حتى بلغه صوت الشاب يناديه : يا فلان ! فانكفأ إليه ؛ فقال له الشاب : لقد بعد عهدك بالفتوة على ما أرى . قال : فما ذاك ؟ قال : أما بلغك أن فلاناً في هذه القرية التي تجاورنا ، سيقترن بزوجته بعد أيام . وأنت تعرف الموقعة التي كانت بين بلدنا وتلك البلدة يوم عرس فلان في السنة الماضية ، وكيف اندفعوا على أهل بلدنا وحطموا فيهم تلك الحطمة الشديدة ، ولولا أنت أدركتهم ورميتهم بنفسك حتى دفعتهم عن الناس وسقتهم أمامك سوق النعاج ، لكانت بلدنا اليوم أذل البلاد، ولاستطالوا علينا بأنهم غلبونا. ولقد حدثنى صاحبى هذا كيف تلقيت بهراوتك يومئذ خمساً وعشرين هراوة فأطرتها كلها في جولتك وهزمت أصحابها بعد أن أحاطوا بك وتكالبوا عليك ؛ فأنت فخر بلدنا وصاحب زعامتها ، وما أرى لك إلا أن تنتهز هذه الفرصة وتسرع الوثبة إليهم برجالك ، فتجزيهم في أرضهم صنيعاً بصنيع مثله

فهز الجمل كتفيه العريضتين وقال : بل سأنتظرهم في يوم عرسى بابنة عمى ··· قال الشاب: أبلغت؟ ما أرى فإنك لتخافهم ! قال: لا أخافهم ولكن أخاف الحكومة أن تؤخر يوم زواجى ··· سنة أو سنتين . قال الفتى : فإن عملك هذا لا يشد من نفوس

(١) معدة لخطبته ، أو كما يقولون : قرئت مع أهلها الفاتحة

(٢) جاسوسا وصاحب سر

رجالنا ، ولا بد أن أولئك سينتظرونكم ويعدون لكم ؛ فإذا لم تناجزوهم فى بلدهم عدوها عليكم هزيمة من الهزائم وكأنهم ضربوكم بلا ضرب

قال الجمل : هم لا يعرفون معنى الضرب بلا ضرب لأنهم رجال ، والذى يضرب بلا ضرب لا يكون رجلاً ... والسلام عليكم . . . ثم انطلق . فلما أبعد قال الشاب : لقد بدأت الحرب ولا بد لى أن أحطم هذا الفلاح اللعين ، ولقد عرفت الآن من وجهه أن عينه علىّ ، ولست أشك فى أن بنت عمه لا تمتنع بقوتها بل بقوته ، ولولا معرفتى أنه من انحطاط الغريزة كالوحش فى الدفاع عن أنثاه لـ . . .

قال (إبليس) : لقد تأملت القصة فرأيت أنه لا سبيل لك إلى الفتاة وهى بعد فتاة ؛ فإذا هو وصل إلى امرأته قطعت أنت بهذه الخطوة نصف الطريق إليها . . . وستبلو هى من غلظته وخشونة طبعه ما يسهل لك أن تعلمها قيمة ظرفك ورقتك ؛ وستجد من سوء معاملته وقبح تسلطه ما يفتح قلبها لمن يأتيها من قبل الرفق واللين ؛ وستصيب عنده من ضيق المعيشة وقلتها وبؤسها ما يُفهمها معنى ذلك العيش الحلو الخضر الذى تعرضه عليها ؛ ثم إنه لا بد مبتليها بغيرته العمياء بعد ما عرف من حبك إياها ، والغيرة منك هى توجد بينهما دائماً وتنبه المرأة إليك كلما كرهت من رجلها شيئاً لا ترضاه

ولم تكن إلا مدة يسيرة ، حتى أهديت المرأة إلى زوجها ، وإنما تعجل الزفاف ليأتى له أن ينصب يده القوية حجاباً بينها وبين هذا المفتون ، وليكتسب من القانون حقاً لم يكن له من قبل إذا هو مد هذه اليد وعصر فى قبضتها تلك الرقبة التى تتطلع إلى امرأته ، ورأى الشاب أن هذه الحال لا تعتدل به وبخصمه معاً ، وكانت الغيرة تأكل من قلبه أكلا ، وكان يعرض المرأة كلما خرجت بمكتلها[1] إلى السوق ، أو بجرتها إلى الماء ، لأنه حينئذ يكون فى الطريق الذى لا يملكه أحد ... فكانت إذا رأته لم تزد على ما يكون منها ، إذا هى أبصرت حماراً يمد عينيه إليها . فعمد إلى امرأة مغنية تزف العرائس ، وهى التى زفت (خضراء) ، فأكرمها وأتحفها وسألها أن تسعفه ببعض ما تحتال به ، وأن تكون سبيله إلى المرأة ؛ وتحمّل عليها (بإبليسه) حتى استوثق منها ، فكانت تتحدث عنه أمام (خضراء) ، تستجرّ بذلك أن تلفتها إلى نعمته وجماله ، ولكن المرأة أغلظت لها وسبتها وحذرتها أن تعود إلى مثل كلامها ، وقالت لها آخر ما قالت : واعلمى أننى لو دُفعت إلى طريقين ، وكان لا بد من أحدهما ، ثم كان أحدهما حصاء الدنانير وهو طريق العار ، والآخر حصباؤه الجمر ، ويفضى إلى الشرف ، إذن لتنزهت أن أدنس نعلى بالذهب ولنثرت لحم قدمى على الجمر نثراً

وأما الحب فلا يبقى حباً أبداً ، فإما فاز فبرد ورجع سلواً ، وإما خاب فاضطرم وتحول إلى حقد ونقمة ؛ وكذلك انفجر الشاب غيظاً ، ووجد على الخيبة موجدة شديدة ، وأخذ يدبر رأيه ، ففتقت له الحيلة أن يقتل الرجل المتهم بشهامته ، والمرأة العفيفة بعفتها ، فواطأ إبليسه على أن يدفع إلى تلك المغنية منديلاً من الحرير — عقد طرفه على دينار من الذهب — تلقيه فى صندوق « خضراء » ، وتدسه فى طى من أطواء ثيابها ، فذهبت المرأة وما زالت « بخضراء » تستصلحها وتعتذر إليها حتى استلت ضغينة قلبها ، ثم سألتها أن تأتيها (بالعيش والملح) لتصيب كلتاهما منه وتتحرم بحرمته ، فلما نهضت تأتيها أسرعت الخبيثة إلى الصندوق فدست المنديل فى أبعد مواضعه وأخفاها ، وكان مندّى بالعطر ليتم على نفسه إذا لم يتم أحد عليه ؛ ثم رجعت بما فعلت إلى الشاب فأطلق خادمه يهمس لبعض أصدقاء الجمل أنه رأى اليوم فى يد (خضراء) ديناراً ذهباً على ندرة الذهب وعزته ، فجعل هذا الدينار يطير من نفس إلى نفس بقوة الذهب الذى فيه والحب الذى أعطاه والجمال الذى أخذه ، ثم انتهى إلى الجمل ، فكأنما حمله وطار به إلى داره كالمجنون ، وقد حمى دمه الحر وجاش جأشه العنيف ، ولم تكن امرأته فى الدار ، فنثر ما فى الصندوق وما كادت تقتمه رائحة العطر حتى نفخ الشيطان به نفخة الغضب الكافر ، ثم عثر على المنديل ورأى بصيص الدينار فدارت به الأرض وأيقن أن العار قد طرق بابه وأن الباب قد فتح له ؛ ثم رد نفسه على مكروهها ورد معها كل شىء إلى موضعه ، وتلفف رأيه على جريمتين ، وخرج وروحه تصرخ من ضربة بمنديل وهو الذى كانت تتهاوى عليه الضربات القاتلة تهشم منه ولا يتأوه

وذكر أن (حماته) أتت من عهد قريب على ابن العمدة ووصفته بالرقة والغنى ، فوجه إليها أن تأتى فتبيت عند امرأته لأنه على سفر ، وكان كالأعمى فى ضلالته لا يرى الأشياء إلا كما يتخيلها فى نفسه دون ما هى فى نفسها ، فسألته زوجته : أين أزمعت وما تبغى من سفرك وكم تلبث عنا ؟ فكأنه سمعها تقول : إرحل إلى مكان بعيد

(١) هو ما يسمى الفلق

وغب عنا زمناً طويلاً فبنا إلى غيابك حاجة شديدة ، وكاد يبعاش بها ولكنه كاتم صدره اللوعة وذكر اسم جمة بعيدة ومضى والانكسار يعرف فيه

* * *

فزع الناس بعد أيام فى جوف الليل فإذا بيت الجمل يحترق من أرضه وسمائه، واقتحموه فإذا المرأة وأمها لحمتان ، وانطلقت أسرار الألسنة وقبض على الرجل فى بلدة أخرى، وتولى ابن العمدة توجيه البينة عليه، وشهد الشهود على الدينار، وشهد الدينار على النار، وأنكر « الجمل » ولم يقصر فى إقامة الحجة ، ودافع عن امرأته وبالغ فى أمانتها وعفتها، وشهد أنه لا يعلم عليها من سوء وأنها أطهر النساء وأبرُّهن ، ثم كان الحكم أن قضى عليه بالموت شنقاً

فلما كان يوم إنفاذ الحكم سئل الرجل: هل من شيء تريده؟ فطلب دخينة [1] فقدمها له قيم السجن فأشعلها ونفخ من دخانها نفخة، ثم أخذ يتكلم وعمره يفنى مع الدخينة نفساً فى نفس، وعاد هذا الدخان المتطاير كأنه سحاب يسبح فيه الوحى بين حدود الدنيا وحدود الآخرة . قال المسكين : لم أتعلم، ولو تعلمت ما وقفت هنا، ولكن ربما كنت خرجت نذلاً كبعض المتعلمين الذين يعيشون أشرافاً وفيهم أرواح القتلة واللصوص

لم أقر لأحد بجريمتى خشية أن تذكر كلمة العار مع اسمى ، وآثرت أن أموت بالشنق على أن أحيا ويموت اسمى بالعار

ولكنى سأعترف الآن أمامكم، وأنتم الساعة على قبرى فكونوا كالملائكة : لا يشهدون بما عرفوا إلا عند الله وحده

أعترف أنى قتلت زوجتى وأمها، وقد تقولون إنه ليس من عمل الرجل أن يقتل امرأة فضلاً عن اثنتين . إننى رجل سأشنق ؛ أما النساء فلا يشنقن وإنما يُرسلن الرجال إلى المشنقة... لم أر أبى إذ تركنى طفلاً ، ولكن يقال إنه كان رجلاً ، فأنا رجل وابن رجل ولم يذلنى رجل قط ؛ ولكن لو خلق الله قوة مائة جبار فى جسم رجل واحد لأذلته امرأة

إنه ليس من شيمة الرجل أن يقتل النساء ؛ ولكن المرأة تذل الرجل ذلا يهوّن عليه قتل نفسه فكيف لا يهوّن عليه قتلها ؟

علموا المتعلمين ليصيروا فى الشرف والأمانة والعفة كرجل جاهل مثلى ، لا يرى للحياة كلها قيمة إذا كان فيها معنى العار ، ويقدم عنقه للمشنقة حتى لا ينكس رأسه للذل

(١) وضعناها للسجارة وهى أليق الألفاظ بها

أصلحوا القانون الذى يحكم بالموت شنقاً ويزهق الأرواح الكبيرة فى حين تغلبه الأرواح الصغيرة بحيلها الدنيئة

ومع ذلك سألقى الله وهو يعلم سريرتى إن كنت بريئاً أو مجرماً

قيم السجن : ستلقاه طاهراً

المسجون : أرأيتم منى خلق سوء . . . ؟ أتعتقد على ذنباً مدة سجنى ؟

القيم : كلنا راضون عنك

المسجون : هذا مَثَل من أخلاق والحمد لله على أن آخر كلمة أسمعها من إنسان على الأرض كلمة الرضا

... ...

أشهد أن لا إله إلا الله . وأن محمداً رسول الله

* * *

نظرت ريشة من زغب العصفور إلى النجوم فحسبتها ريشاً متناثراً، فامتطت العاصفة وقالت: إلى السماء، ودارت بها العاصفة ما شاء الله أن تدور ثم رمت بها حيث وقعت لم تبال فى موضع نفع أم ضير . فأقبلت الريشة تتسخط وتزعم أنها فوضى ثائرة لا حكمة فى خلقها، وأن الرياح بعثرة فى نظام العالم ... وكان إلى جانبها شجرة تهتز ولا تطير ... فلما وعت مقالتها أقبلت عليها فقالت : أيتها الريشة ! إن الرياح لا تكون بعثرة فى نظام العالم إلا إذا كان العالم ريشاً كله .

مصطفى صادق الرافعى

الافصـــاح

المعجم العربى الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية فى العلوم المختلفة ، ولا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريبا ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى
المدرس بمدرسة الخديوى إسماعيل الثانوية

عبد المنعم الصعيدى
رئيس التحرير بمجمع اللغة الملكى

فى ذكرى الرافعى

[بقية المنشور على صفحة ٨٠٤]

مثل الفهرست لابن النديم ، ووفيات الأعيان ، ونحوها

وطريقته فى التحصيل من هذه الكتب ، أن يقرأ الكتاب ما بين دفتيه؛ ثم يكتب ملخصه بحيث يشمل من أسماء أهل الفنون الأدبية وامتياز كل منهم ، مثل الشعراء ، والخطباء ، والكتاب ، والرواة ؛ ثم أسماء الكتب ، وموضوعها ، وفنون العلم ، ومعارضات العلماء بعضهم لبعض ؛ ثم الطرائف الأدبية التى تشير إلى معنى يتصل بشىء من موضوعه . وفى كتب التراجم من هذه الطرائف ما ليس فى كتاب

وأستطيع أن أقول جازماً : إن الرافعى اعتمد على كتب التراجم فى الجمع لكتابه « تاريخ آداب العرب » أكثر مما اعتمد على الكتب الخالصة الأدب ؛ وكان اتجاهه إلى ذلك سبباً فى توفيقه إلى ما لم يوفق إليه غيره فى موضوعه

ويذكِّرنى اعتداده بكتب التراجم فى هذا الشأن ، ما ذكرته فى كتابى « حياة الرافعى » عن استمداده منها أكثر ما كان يكتب لقراء الرسالة من قصص لم ينسج على منوالها كاتب من قبله ولا من بعده؛ فكان هذه الكتب كانت عوناً كبيراً له على ما أبدع فى الأدب بنوعيه : الإنشائى والوصفى

***

لست أشك فى أن طريقة الرافعى هذه كانت ذات فائدة كبيرة، ولكنها كانت حقيقة بأن تكون أكثر جدوى وفائدة لو أن هذه الملخصات والفهارس التى صنعها ليستعين بها كانت على غير النظام الذى وضع، ليمكن انتفاع غيره بها ؛ فلو أنه عنى بأن تكون تلك الفهارس كاملة وعامة ، لكان بذلك قد كمل نقصاً فى تلك الكتب التى أخذ عنها وزادها فائدة ؛ ولكنه — رحمه الله — لم يكن له غاية من صنع هذه الفهارس إلا الاستعانة بها على الجمع لكتابه ، فبلغت به ما أراد ، ثم بطل عملها !

وقد يسأل سائل : كيف تهيأ للرافعى الزمن الذى قرأ فيه تلك الكتب التى أخذ عنها ولخصها ، ثم ألف منها كتابه ؟

وهو سؤال لا أجد جوابه ، على أنه مما يزيدنى دهشة أن الرافعى قد بدأ يعد لكتابه تاريخ آداب العرب فى سنة ١٩٠٩ وفرغ منه — بأجزائه الثلاثة — فى سنة ١٩١١ ؛ فانظر ما عسى أن تتسع له سنتان من عمر فتى لم يتجاوز الثلاثين وهو أب وزوج وله عمل فى الحكومة يشغل نصف نهاره ؟

وقد قال لى قائل مرة وقد جاء ذكر الجزء الأول من تاريخ آداب العرب : إنه كتاب يتحدث عن كل شىء إلا عن آداب العرب !

قلت : قد يكون ذلك رأيك ورأى طائفة معك ، ولكنه على كل حال كتابٌ يغنى عن مائة كتاب ؛ واسأل معلِّميك : من ألَّف فى تاريخ آداب العرب قبل الرافعى ؟

رحمه الله بما قدم لهذه الأمة وأجزلَ ثوابه

محمد سعيد العريان

M. Arab. 143

الشيطان ذو الأجنحة

إن لسكان جزيرة سيلان أسطورة مقدسة تخبر بالشعر عن تاريخ سيلان مدة تزيد على أربعة وعشرين جيلا. ويستنتج من هذه الأسطورة أن الجزيرة التى زارها بوذا مراراً كى ينشر فيها تعاليمه بنفسه مرت بعهود من الرفاهية لم تعرف مثلها إلى ذلك الوقت ، ومن المحتمل أن يكون سكانها أكثر عدداً من الآن ، فآثار المياكل الكثيرة والبحيرات الاصطناعية التى أهملوها لاتزال برهانا على ذلك .

ولا داعى لبحث بعيداً جداً من أسباب نقص عدد السكان فالجزيرة المباركة قد اجتاحها مراراً المرض الوبائى بقساوة فان أهالى الجزيرة وكذلك أيضا البرتغاليين الذين احتلوها فى الجيل السادس عشر والهولانديين الذين طردوا هؤلاء ، وأخيراً الانجليز الذين ملكوا بعد ذلك سيلان قد قاسوا كثيرا من تفشى هذا الوباء ، وقد نشر الهولنديون أيضا سنة ١٦٤٧ خريطة من سيلان وقد تركت مناطق كاملة بيضاء مع أنه لم يكن المقصود من ذلك أنها أراض مجهولة إذ كان الانسان يقرأ على هذه البقع البيضاء هذه الكلمات التى لاتدع مجالا للشك جهات أقفرها المرض .

فى سنة ٢٣٨ مسيحية على عهد « د هامابو » قد اجتاحت الحميات والأمراض هذه المناطق وأهلكت السكان على ما يؤكده الرواة فى سيلان بدرجة أنهم عجزوا عن أن يزرعوا الأرز وقد نتج عن ذلك مجاعة طويلة المدى فنسبوا هذه البلية إلى حيث الشيطان ذى الجوائح وسعوا لتجنبه بواسطة الرقص حسب الطقوس الدينية ولكن الرواة يؤكدون أن سكان سيلان لم يجدوا السعادة مع ذلك طالما أن الشيطان ذو الأجنحة السوداء لم يقتل بعد .

وقد قامت الحكومة الانجليزية بمحاربة بعوض الملاريا بنشاط كبير فى سيلان يمكن الانسان أن يأمل الآن بعد ثمانية عشر جيلا بأن الساعة قد حانت أخيراً كى يرى نهاية حكم الشيطان ذى الجوائح كما يقول الرواة . وقد بنوا أيضا مستشفيات كثيرة . وفى بحر هذه السنوات الأخيرة عند ما عمت الملاريا بشكل وبائى قد وزعوا مراراً ألوف الجرامات من الكينا خلال ستة أشهر إما على سبيل الوقاية وإما على سبيل التداوى ، والطريقة التى تصفها لجنة الملاريا فى جمعية الأمم تلخص فى تطبيق العلاج السريع بالكينا أى مقدار جرام واحد أو جرام وثلاثين سنتجرام يوميا مدة خمسة أو سبعة أيام وهي سلاح قوى لشعب يجند بأكمله ضد الشيطان ذى الأجنحه وتوصى على سبيل الوقاية بأخذ ٤٠٠ مليجرام من الكينا يوميا طول مدة موسم الحميات .

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾